مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 12 / العدد: 01 (2024)، ص:79-97

مآلات الوعي الأوروبي حسب حسن جنفي

The tendencies of consciousness in European thought according to Hassen Hanafi

ط.د.أمال شنه [1]، أ.د. محمد نورالدين جباب[2]

[1]مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ في الجزائر، جامعة الجزائر 2 (الجزائر)،
chenna.amel@univ-alger2.dz

[2]جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، djebab.nouredine@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/11/04 تاريخ القبول: 2024/01/23 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص:

إن الهدف من هذه الدراسة هو التعرف على موقف حسن حنفي من الوعي الأوروبي وخاصة تحليله لمصادر هذا الوعي ومراحله، فقد أعطى قراءة نقدية لهذا الوعي تنطلق من نقده له من خلال المصادر التي يخفيها كبنيات أساسية في تكوينه وخاصة الحضارة الشرقية. وكذلك قدم رؤية استشرافية لهذا الوعي والتي ترى بأنه بلغ مرحلة النهاية ومن مظاهر ذلك هو السقوط في العدمية وتفسخ المشروع الإنساني، و الموت في الروح فقد أصبح الفن بمثابة ترجمة للواقع.فالوعي الاوروبي حسب حسن حنفي ليس وعيا من نوع خاص وإنما مرحلة من مراحل الفكر الإنساني وسيأتي وعي جديد ليس نابع من الحضارة الغربية.

كلمات مفتاحية: حسن حنفي، الوعي، المآلات، العدمية، النزعة الإنسانية .

Abstract: The aim of this study is to identify a situation Hanafi of European awareness especially his analysis of sources this awareness and its stages he gave a critical reading of this awareness his criticism of him stems from the sources he hides as basic structures in its formation, especially Eastern civilization. He also presented a forward_looking vision for this awareness, which he believes is as basic structures in its

formation especially eastern civilization. he also presented a forward-looking vision for this awareness which he believes is he has reached the end stage and one of the manifestations of this is falling into nihilism and the disintegration of the human project and death in the soul is lost art has become a translation of reality.European consciousness, according to Hassan Hanafi, is not who's consciousness, a special type, but rather of human thought , a new awareness will come that does not emenate from western civilization.

Keywords: Hassan Hanafi; awareness; nihilism; humanism; art

***المؤلف المرسل: ط. د. أمال شنه**

1. مقدمة

لقد شهد الفكر العربي المعاصر العديد من المفكرين الذين تميزوا باهتمامهم بقضايا الواقع العربي ومحاولة ايجاد حلول لها من أجل تحقيق التقدم وتجاوز الأزمات التي يعانيها ، والخروج من الانحطاط الذي وصل إليه وخاصة صدمته مع الحضارة الأوروبية المتقدمة .

من هنا يبدأ مشروع المفكر المصري حسن حنفي الذي تناول العديد من الجوانب وأفاض فيها وخاصة حديثه عن الوعي الأوروبي من بدايته إلى مآلاته فلقد نالت هذه القضية اهتمام العديد من المفكرين غيره وكان لكل واحد منهم رؤيته الخاصة بين من يشيد بأهمية هذا الوعي واستمراريته وبين من أعطى موقف نقدي لما سيؤول إليه في النهاية ، وهذا ما عبر عنه حسن حنفي.

وسنحاول من خلال هذا المقال الوقوف على ما تناوله حسن حنفي حول الوعي الأوروبي والتركيز على مآلاته التي توصل إليها .

وهو ما يجعلنا نطرح الإشكالية التالية:_ كيف كانت وجهة نظر حسن حنفي عن الوعي الأوروبي ؟

وفيما تتمثل البنى التي قام عليها الوعي الأوروبي حسب حسن حنفي؟ ومن أين استمد أفكاره حسب مفكرنا ؟

وماهي المآلات التي وصل إليها حسن حنفي للوعي الاوروبي ؟

1_موقف حسن حنفي من الوعي الاوروبي: لقد درس حسن حنفي الوعي الاوروبي وذلك ضمن إطار علاقة الأنا بالآخر في مشروعه علم الاستغراب الذي كان هدفه هو التعرف على التراث العربي وإعادة قراءته بالإضافة إلى محاولة التعرف على الوعي الاوروبي واعطاء موقف ثابت منه وكانت طبيعة موقفه من هذا الوعي انه نقدي نابع من روح الحضارة العربية ،إذ انتقد الوعي الأوروبي بأنه يعاني فجوة في الفترة الحديثة والمتمثلة في الصراع بين التجريبيين و العقلانيين إلى غاية محاولة الفيلسوف ايمانويل كانط تجاوزهذا الصراع؛ فهنا يرى حنفي بأنه يعاني من انفصام يتمثل في القطيعة بين الحس والعقل كوسيلتين مهمتين في اكتساب المعرفة وخاصة التجاذبات بين ديكارت ودافيد هيوم لكن جاءت الفلسفة النقدية عند ايمانويل كانط التي لم تقر لا بالعقل ولا بالحس وإنما جعلت كل منهما يخضع لميزان النقد وحددت مجال كل منهما هنا بدأ الوعي الأوروبي يسترجع توازنه بعدما كان يتأرجح بين التيارات المتصارعة ومن هنا تجددت العلاقة بين العالم والإنسان (حنفي، د.ت، ص 683)

فمادة الاستغراب " هي من جهد الأنا وابداعه وليست من افراز الآخر أي ليست من مادة نقد الحضارة الغربية لنفسها بل هو انتاج محلي خالص" (بن بوزيد، 2016، ص 174) فالمقصود هنا أن الذات العربية هي التي أبدعت قراءة الحضارة الغربية وليست مفروضة من الآخر وهذا لتحقيق مجموعة من الاهداف كما يرى حنفي من بينها التعرف على مقومات هاته الحضارة والسعي غلى محاولة تطبيق المناهج الغربية في البيئة العربية للنهوض بالفكر العربي وهنا تحاول الذات العربية أن تكون مستقلة عن الغرب فالتبعية كانت من أسباب تأخر العرب كما يرى حنفي .

فهو يرى بأن الوعي الأوروبي وصل إلى مرحلة النهاية فلما "كانت بداية الوعي الفكري الغربي في نظر حنفي في انطلاق الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي الذي بدأ من ديكارت فإنه من الطبيعي أن تتحدد نهايته" (حنفي، د.ت، ص 47)

فالفلسفة الغربية في الفترة الحديثة عرفت صراع بين اتجاهين كبيرين هما الاتجاه العقلي والاتجاه الحسي فالعقلي يرجح الكفة والأولوية للعقل في المعرفة والحسي يرجح الكفة للحواس كمصدر رئيسي للمعرفة، واستمر هذه الصراع إلى غاية مجيئ ايمانويل كانط الذي بين حدود كل من العقل والتجربة من خلال النقد الذي مارسه عليهما كأداة أساسية وهذا لم يخفف من الصراع كثيرا إلى أن جاءت الفلسفة الفنومينولوجيا عند ادموند هوسرل الذي حاول أن يجعل من الشعور وسيطا مهما في المعرفة من خلال فكرة القصدية التي تجاوز بها هذا الصراع وفتح أفاق واسعة للفلسفة الغربية وهذا حسب حنفي إذ مثل نقطة مهمة في تاريخ الوعي الاوروبي الذي بعدما كان عند ديكارت ينطلق من العقل وعند هيوم من التجربة اصبح مع هوسرل ينطلق من الشعور والقصدية.

وهو ما جعل حسن حنفي يعمل على نقد الحضارة الغربية من أجل تحويله إلى ذات مدروسة ونزع تلك الفوارق التي كانت تجعل من الغرب دائما المعلم والذات العربية بمثابة التلميذ ،فالهدف من علم الاستغراب ونقد الوعي الاوروبي عند حسن حنفي هو إعادة" التوازن للثقافة الانسانية بدل هذه الكفة الراجحة للوعي الاوروبي والكفة المرجوحة للوعي اللاأوروبي" (الجازي، 1991، ص 45) فالفكر الأوروبي كان دائما مركزيا يرفض كل حضارة خارجة عن ذاته فمشروع حسن حنفي كان في حقيقته ردا عن المركزية الغربية التي لا تعترف بأهمية الآخر الغير اوروبي في تشكيل حضارته ، ومن هنا كان موضوع الاستغراب الاساسي هو التعرف على الحضارة الغربية التي كانت تدرس الشرق بواسطة الاستشراق فوجب ايجاد علم يهتم بكل مقومات الوعي الغربي والهدف هنا هو رد الغرب غلى حدوده الطبيعية ونقد التمركز

الغربي حول نفسه وعدم اعترافه بالآخر الذي يساهم بشكل ما في تشكيل ذاته والذي وجده حنفي أن الشرق القديم كان عاملا مهما في تشكل الوعي الاوروبي فهو يرى بأن الذات العربية ليست مضطرة ان تكون ضحية المركزية الغربية بل عليها أن تستفيد من هاته الحضارة وتحاول النهوض بنفسها فالتطور لا يمكن ان يكون حكرا على الآخر الغربي فالدورة الحضارية حسب حنفي ستنتقل إلى العرب إذا أسسوا حضاراتهم على التراث العربي والاستفادة من المناهج الغربي وتفسير واقعهم .

إن" استعادة الشرق لوعيه الذاتي هي عملية تربوية وثقافية سيصبح الشرق والغرب في نهايتها فاعلين ثقافيين يتفاعلان فيما بينهما وحنفي يؤكد هذا الرأي"(كامبانيني، 2022، ص 86) فحسن حنفي قدم دراسة مفصلة للوعي الأوروبي من خلال تتبعه لمساره ومصادره التي صرح بها والتي يخفيها كمنابع مهمة لتكوينه إنما يؤكد هنا على اهمية التلاقح الحضاري بين الغرب والعرب من اجل تكوين حضارة إنسانية هدفها هي توسيع دائرة الحضارة رغم الاختلافات الموجودة ،فالعرب في وقت مضى كان لهم وعي متميز كباقي الشعوب وجب عليهم استعادته وهذا لا يعني اقصاء الآخر الغربي وإنما من خلال الاستفادة من الغرب والتفاعل معه من أجل تعزيز نقاط قوته المتمثلة في التراث وتفسيره بالواقع استنادا إلى ما ينفعه من المناهج الغربية .

فحسن حنفي عندما تتبع مسار الانا بالموازاة مع الآخر وجد تبادل في العلاقات واستفادة كلا الحضارتين من بعضهما البعض.

2-مصادر الوعي الأوروبي عند حسن حنفي :

لقد بحث حسن حنفي في الفكر الغربي ونشأته وكان الهدف من هذه الدراسة هو الوصول إلى مصادر هذا الوعي فهو يرى بانه لا يمكن أن ينشأ هذا الوعي من دون مصادر وقسمها إلى قسمين هما:

أ) المصادر المعلنة: ويقصد بها الأصول التي صرح بها الفكر الغربي والتي اعتبرها منابع أساسية في تكوينه وهي النواة التي انطلق منها هذا الوعي وينقسم حسبه إلى مصدرين هما "المصدر اليوناني الروماني، والمصدر اليهودي المسيحي "(الجازي، د.ت، ص 41) تجدر الإشارة إلى ان هذا التقسيم الذي قدمه حسن حنفي لمصادر الوعي الأوروبي له ما يبرره، ذلك ان المصدر الديني ممثلا في الديانتين اليهودية والمسيحية إنما نلمس أثاره في بواكير الفكر التنويري الغربي في اللحظة التي لم يكن فيها عداء معلن أو مخفي بين رجال الدين والفلاسفة.

أما إذا جئنا للحديث عن المصدرين اليوناني والروماني فإن هذه الفكرة في الحقيقة نجد خيوطها ممتدة في فلسفة هيجل لما اشار غلى مراحل تكوين العقل الغربي لأي العقل في التاريخ إذ أشار هيجل إلى أن الفكر اليوناني يعد بداية التفكير النظري العقلي الصرف "فهو الذي أعطى الوعي الأوروبي تصوراته ومفاهيمه ولغته وبدايات علومه " (حنفي، 1991، ص 118)

ثم في الفضاء الروماني شهد الفكر اليوناني نضجا وتطورا ،وفي ذات السياق أكد حسن حنفي أن الوعي الأوروبي تمتد جذوره في الفلسفتين اليونانية والرومانية وهذا ما انعكس أثره في فلسفة الأنوار (كانط وفولتير) باعتبارها أحد ركائز الوعي الاوروبي .

ففي البداية الوعي الاوروبي كان منطلقه ديني لكن ما بعد الحداثة انسلخت عن الدين على اعتبار أن الفلسفة الغربية كانت لصيقة بالدين وليست منفصلة عنه ولكن الفكر الغربي فيما بعد انفصل عن السلطة الدينية التي قيدت الانسان وجعلت الكنيسة تفكر في مكانه ،لكن جاءت حركة حاولت تحرير الانسان من كل السلطات التي سيطرت عليه فقد أعطت مساحة كبيرة من الحرية للتفكير العقلي بعيدا عن كل وصاية تمارس عليه .

فالفكر الغربي دائما يعترف دائما بالمصدر اليوناني والروماني كمنابع مهمة في تكوينه فاليونان أعطوا الوعي الاوروبي الجوانب العقلية والرومان كان هناك مساحة واسعة للحريات والتعبير بعدما كان الإنسان مكبلا بالقيود الدينية والكنسية.

أما من الناحية الروحية فالوعي الاوروبي يعتمد على الديانة اليهودية والمسيحية كمصدرين رئيسين في تشكيل كيانه الديني والروحي وكان تأثير هاتين الديانتين جليا وخاصة في فترة الحداثة لكن فيما بعد الحداثة ابتعدت الفلسفات عن الجانب الديني وأصبحت عدمية حسب ما وجده حنفي من خلال تشريحه للوعي الأوروبي.

ب) المصادر الخفية : ويقصد بها حسن حنفي المنابع التي أخفاها الفكر الغربي ،والتي يقول عنها ميشال فوكو المسكوت عنه ولا يصرح بها كمصادر استفاد منها فلقد استفاد من حضارات الشرق القديم؛ وهذا بفعل نشاط المثاقفة القائم بين الحضارات الانسانية وإذا كانت الحضارات الشرقية في عمومها ذات توجه ديني تبحث في العلاقة القائمة بين الدين كإطار عقدي والوجود الإنساني الفعلي من حيث التأثير والتأثر، فإن الحضارة الصينية بصفة خاصة تميزت عن غيرها من الحضارات بالخطاب العقلاني السامي إذ نجد الحكيم الصيني هو الوحيد الذي بحث عن الحكمة في الأرض بدل البحث عنها في السماء.

ولقد ظل التأثير الصيني ممتدا في الحضارات المتلاحقة وآثاره تبدو لنا واضحة وجلية في الحضارة الاوروبية خاصة في فلسفة كانط إذ :"يتفق كانط مع كونفوشيوس ،عندما جعل الإرادة الخيرة هي منبع فلسفته الأخلاقية ،إنها الصوت الباطن الذي ينبعث من اعماق وجودنا " (مجموعة مؤلفين، 2013، ص 46) يضاف إلى جانب ذلك أن الفلسفة الأخلاقية الصينية الكونفوشيوسية كانت أكثر تفاؤلا واستبشارا بالواقع المعيش للإنسان ، فهي بالجملة فلسفة أخلاقية إنسانية وهذا هو وجه التلاقي بينها وبين فلسفة كانط التي تهدف غلى وضع جملة من القواعد والقوانين

الاخلاقية غايتها تنظيم السلوك الإنساني .وبالتالي نجد أن الاثر الصيني تحديدا والشرقي عموما خيوطه ممتدة في الفكر الاخلاقي الاوروبي وقوفا عند فلسفة ايمانويل كانط إنما هو من باب التمثيل فقط .

وهو الموقف الذي يصدره المفكر حسن حنفي في ايراده للمصادر الخفية التي شكلت الفكر الاوروبي.وهذا لا ينقص من قيمته فالفكر لا يعرف جغرافيات ولا هويات ولا حدود ف:"طبيعي أن تكون حضارات الشرق القديم أحد مصادر الوعي الاوروبي " (حنفي، ص 34)

فالتأثير بين الحضارات ليس نقصا و إنما انفتاح وثراء فالفكر الإسلامي شكل حلقة وصل بين الفكر الشرقي واليونان و الفكر الأخلاقي الغنوصي واخوان الصفا وكذلك تأثر برغسون بالإسلام الروحي و لا يخفى كذلك تأثر محمد اقبال بالفلاسفة الالمان، فالتلاقح بين الحضارات هو الذي يزيد من قوتها ويثريها فاستفادة الفكر الغربي من الصينية وغيرها من الحضارات الشرقية جعلها تقدم إضافات كبيرة في مواطن التأثر .

وكذلك يرى حسن حنفي أن البيئة الأوروبية نفسها ينكرها الغرب كمصدر مهم في تشكيل وعيه :"و لا أحد يذكر البيئة الأوروبية نفسها كأنما الحضارة الاوروبية حضارة بلا بيئة ، نشأت بلا عوامل" (حنفي، 2017، ص 44) فالفكر الغربي ينكر دور البيئة الاوروبية المهم في تشكيله والعوامل التي ساعدت على قيامه وهذا التستر حسب حسن حنفي الغاية منه هو جعل الوعي الاوروبي متميز وأنه نشأ من دون بيئة ومن غير عوامل ساعدت على نشأته وهذا ليثبت فكرة المركزية الغربية وأنه مركز العالم .يمكن القول بأن الفكر الأوروبي ليس طفرة وليس وليد اللحظة وإنما هو مرحلة من مراحل الفكر الإنساني فهو ليس الاخير .

3- مراحل الوعي الأوروبي حسب حسن حنفي: من خلال تتبع لمسار الوعي الأوروبي وجد بأنه يمكن تقسيمه إلى خمسة مراحل أساسية لكل مرحلة مميزاتها وهي :

_**مرحلة عصر أباء الكنيسة** :في هذا العصر يرى حسن حنفي أن الوعي الأوروبي بدأ و"تشكل باعتباره وعيا دينيا أفلاطونيا اشراقيا ،تحولت فيه آلهة اليونان إلى آلهة الدين الجديد و ملائكته "(حنفي، ص 276) ففي هذا العصر يقر حسن حنفي بأن الوعي الأوروبي كان متمسكا بالدين ورجاله .

فالكنيسة كانت هي مصدر السلطة والمعرفة وكانت تقوم على تعاليم أفلاطون وآلهة اليونان هي التي كانت تعبد وتقدس بعدما كان البابا في الكنيسة هو الذي يمتلك الحقيقة الأبدية. فمن هنا كانت المسيحية هي المسيطرة مع آلهة اليونانيين .

_ **العصر المدرسي:** وفي هذه المرحلة يرى حسن حنفي بأن فترة الفلسفة المدرسية "تحول فيها الوعي الديني الاوروبي من الأفلاطونية الاشراقية إلى الآرسطية الطبيعية" (حنفي، 2017، ص 180)

في هذه الفترة تحول الوعي الأوروبي من الأفلاطونية إلى الآرسطية فقد أصبح أرسطو وتعاليمه هي التي سيطرت وهنا يرى خنفي بأن الوعي الغربي طغى عليه الانحطاط بالموازاة مع الحضارة الإسلامية التي عرفت تطورا وتقدما كبيرا فالسلطة الدينية في الغرب هي مصدر المعرفة فلقد تخلى الغرب عن تعاليم أفلاطون وانتقلوا إلى مدرسة أرسطو الطبيعية .

-**مرحلة الاصلاح الديني** :يرى حنفي بأن الوعي الأوروبي بدأت بوادر الاختلاف تظهر فيه إذ يصرح بأن "عصر الإصلاح والنهضة تحول من سلطة الإله إلى مركزية الإنسان والعقل والتحرر من كل القيود ومن هنا تكون بداية الوعي الاوروبي " (حنفي، ص 245) على ما يبدو أن النزعة الإنسانية هي السمة الأبرز في التحول من بدايات التكون إلى بذور تشكل الوعي الأوروبي ،وهذا ما لمسناه بشكل لافت لدى طلائع الفلاسفة الغربيين حيث أن الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود "شكل الإعلان الصريح عن مركزية الإنسان والثقة التامة في عقله وقدرته على صناعة وعيه .

وقد سبق ديكارت إلى فلاسفة حركة الاصلاح البروتستانتية التي أعلنت ضرورة الاهتمام بالإنسان والاعلاء من شانه في مقابل انكماش الحيز الديني واعطاء مجال أكثر رحابة للعقل الإنساني .

فالكوجيتو الديكارتي كان النواة الأولى التي تأسست عليها الحداثة الغربية التي أعطت اهمية كبيرة للإنسان الذي كان مغيبا مقارنة مع اتساع الدائرة الدينية في فلسفة القرون الوسطى.

-**العصر الحديث** :يعلن حسن حنفي بأن البداية الحقيقية للوعي الأوروبي هي من الفلسفة الحديثة فقد حررت الإنسان من كل الوصايات التي تمارس عليه إذ يرى بأنها :"محاولة لبداية تاريخ الشعور الأوروبي في القرن السابع والثامن عشر ابتداءا من واقعة الكوجيتو وبداية الفصم في الشعور الاوروبي بين الاتجاه العقلي الصوري والاتجاه المادي الحسي"(حنفي، ص 279) وقد نطلق على الوعي الاوروبي في العصر الحديث بأنه عصر نشأة المذاهب الفلسفية الكبرى ضمن مبحث المعرفة وهي بالإجمال تتفق على أن الإنسان مركز الكون وأنه مصدر الحقيقة وأن الحقيقة المطلوبة هي الحقيقة الواقعية خارج أسوار الحقائق الميتافيزيقية المفارقة وذلك بتأثير النزعة العلمانية التي تؤيد كل ما هو علماني وكل ما هو تنويري علمي .وهنا مر الوعي الاوروبي بأزمة هي أن العلمانية والإنسانية انسلختا من الغطاء الروحي .

فمن خلال دراسة حسن حنفي لهاته المرحلة يؤكد بأن البداية الفعلية للوعي الاوروبي تنطلق من الفترة الحديثة وهي مرحلة الانفصال بين الاتجاه العقلي والاتجاه الحسي وخاصة فلسفة التنوير التي اعطت اهمية للعقل الإنساني وحررته.

-**الفترة المعاصرة** :إن فعل القصدية الذي شكل محور فلسفة هوسرل كان الهدف منه هو رد الاعتبار للذات الانسانية ،وبالعودة إلى موقف حنفي من الفينومينولوجيا نجد أنه حكم بأنها شكل آخر مراحل الوعي الاوروبي إذ فيها انصهرت كل المذاهب الفلسفية التقليدية الكبرى وعبرت بحق عن محور الاتزان في الشعور الاوروبي وفي

ذلك يقول حنفي "فقد الشعور توازنه في رؤية الظواهر حتى أتت الفينومينولوجيا فاكتملت المثالية الأوروبية "(عبد اللطيف، 1992، ص 301) فمقصود حسن حنفي أن فلسفة هوسرل جاءت لتؤكد مركزية الذات في الوعي الاوروبي وهذا ما من شانه ان يحفظ للوعي الأوروبي توازنه غلا أن أي تهديد للذات في نسختها العقلانية الديكارتية يعتبر تهديدا للوعي ذاته ولعل هذا ما يعنيه حنفي بقوله بأنها بداية النهاية للوعي الاوروبي ليكون ما بعدها تفسخ الشعور .

وعلى خلاف ذلك يذهب العديد من المفكرين إلى القول بان الفينومينولوجيا قد شكلت ما بعد الوعي الاوروبي أي أنها بداية تشظي هذا الوعي فقد قوضت فلسفة الذات الديكارتية فقد أضحى من الصعب الحديث عن مركز واحد للوعي، فالاختلاف بين حنفي وفتحي المسكيني من الفينومينولوجيا وعلاقتها بالوعي الاوروبي يوجد اختلاف ظاهر بينهما ففي الوقت الذي أعلن فيه حسن حنفي ان مزية الفينومينولوجيا تتمثل في محافظتها على توازن الشعور الاوروبي ، وارتقاء قيمة الوعي فيه نجد أن فتحي المسكيني وغيره من المفكرين المعاصرين يذهبون إلى أن الفينومينولوجيا تحديدا هيرمينوطيقا التأويل عند بول ريكور قد مثلتا بداية تشظي الوعي الأوروبي وانزياحه عن مكامنه فلأول مرة يتم الانتقال بكل سلاسة من فلسفة المعنى إلى فلسفة الكينونة أي من الانا أفكر إلى الانا أكون من دون ان يكون ذلك تعديا على حدود التفكير الفلسفي. (المسكيني، 2013، ص 14)

4- مآلات الوعي الاوروبي حسب حسن حنفي : أشار المفكر حسن حنفي في اكثر من مناسبة إلى أن الوعي الأوروبي من شأنه أن يخضع إلى تغيرات جذرية تتعلق بصميم الأفكار والمبادئ التي كونتها ومن بينها :الذات والإنسان والعقل والوجود.

ومن شأن هذه التغير أن يعبر عن صيرورة الفكر الأوروبي وقد كان من مخرجات التحول الذي شهده الوعي الأوروبي ظهور أفكار جديدة من قبيل العدمية وتفسخ المشروع الإنساني والموت في الروح .

هذه الأفكار أخذت عنوان مآلات الوعي الأوروبي ويمكن تفصيلها على النحو الآتي :

أ)العدمية :يمكن ضبط معناها بانها "مذهب ينكر القيم الاخلاقية ، ويعدها مجرد وهم وخيال مع تحرير الفرد من كل سلطة مهما يكن نوعها، ويقول بأنه لا يمكن تحقيق التقدم إلا بتحطيم النظم السياسية والاجتماعية التي تسلب الفرد حريته "(حسيبة، 2009، ص 311) طالما أن الحقيقة والوهم يشكلان ضدان متعارضان فإن العدمية تمثل الحقيقة التي انتفضت على وهم القيم التي كبلت الوجود الإنساني طيلة مراحل فلسفية متعاقبة وفي اللحظة التي تفطن فيها الإنسان إلى حقيقة القيم وحولها إلى عدم وشكل على إثر ذلك بداية جديدة هي ما يمكن نعته بالموقف الفلسفي المعاصر من الوجود الإنساني.

في المقابل يعطي حسن حنفي لمصطلح العدمية معنى مغاير على أساس أن الثورة على القيم هي ثورة على الإنسان في حد ذاته وتهديد صريح لوجوده ، وقد كانت العدمية من هذا المنطلق بمثابة الانزلاق الفكري الذي وقع فيه الوعي الأوروبي متمثلا بذلك في غياب القيم ومحاربة المقدس والتضييق على كل فكر إنساني .

هذه التمثلات الآنفة هي بمثابة المحاور المشتركة لجميع الاتجاهات الفلسفية التي حملت مشروع العدمية وفي ذلك يقول حنفي "ولقد تراكمت فلسفات العدم في الوعي الأوروبي وهي في مرحلة بداية النهاية بحيث أصبحت إحدى علاماته الرئيسية دليلا ومؤشرا على مصيره"(حنفي، ص 711) بمعنى أن ظهور فكرة العدمية والركائز الثلاث التي ذكرناها محاربة المقدس وغياب القيم والتضييق على كل ما هو إنساني، إنما هو أكبر دليل على اضمحلال الخطاب الفلسفي الغربي وضموره.

وفي نقطة أخرى أشار حنفي إلى أن اولى طلائع العدمية هي محاربة القيم والثورة عليها جاء ذلك في معرض انتقاده للفلسفات العدمية حيث صرح قائلا بأنه من مظاهر العدمية هي قلب القيم .

إن العدمية في أعمق معانيها تحكم في أنه كل ما هو مطلق من شانه أن يؤول إلى النسبية وحين نأتي إلى فكرة الله نجد ان الفلسفة العدمية تنتهي إلى أن الله يحل في الإنسان والإنسان بدوره يحل في الله وهي نفس الفكرة التي دافع عنها فيورباخ واكدها في المراحل الأخيرة ميشال فوكو.

وقد أكد حسن حنفي هذه الفكرة ضمن إطار مناقشته للانتقالات المتعددة للوعي الأوروبي التي شهدها الوعي الأوروبي تحت مسمى الانتقال من الفكر الحداثي إلى الما بعد الحداثي، فالعدمية إذن قرينة باللاعقلانية ونتيجة حتمية لها وهذا ما يعكس الوجه السلبي لفكر ما بعد الحداثة من وجهة نظر حسن حنفي. إن العقل ركيزة في الفكر الحداثي شهدنا ذلك مع أبو الفلسفة الحديثة رونيه ديكارت، وبالتالي فالقطيعة معه –أي العقل –تعني القطيعة مع كل مقومات الوعي الأوروبي وتحديدا حين يتعلق الأمر بالعقل النقدي الأوروبي الذي اتضحت سماته مع فلسفة كانط التنويرية النقدية ورأينا ملامحه ضمن إطار مدرسة فرانكفورت النقدية فالانتقال من العقلانية إلى اللاعقلانية أدى إلى ظهور العدمية وعليه يقول حسن حنفي :"العقلانية الحديثة قد انهارت وتحولت إلى اللاعقلانية ،كما تحولت من الطابع النقدي إلى العدمية ". (ولد أباه، 2010، ص 38)

ب)**تفسخ المشروع الإنساني :** هو التراجع عن المنطلقات التي ينطلق منها الوعي الأوروبي، وهذا ما حدث مع المشروع الانساني الذي وصفت دعائمه بداية مع فلسفة التنوير ففولتير دعوا إلى مشروع الإنسان العالمي إلا أن هذه القيم توقف مشروعها وهذا أحد أهم مآلات الوعي الأوروبي ومن أهم النقاط للتعرف على مآلاته وفي هذا الإطار يقول حسن حنفي أن الوعي الأوروبي: " يقوم على أساس عنصري كامن فيه يمنعه من أن يكون ممثلا للإنسان من حيث هو إنسان إلا فيما ندر. هذه العنصرية الكامنة هي التي جعلت فلسفة التنوير تنتهي حيث بدأت "(حنفي، 2006، ص

114) فعلى مستوى المرتكزات نجد أن الفلسفة الإنسانية التي تأخذ مبادئها من مبادئ فلسفة التنوير قد تراجعت وتفسخت وهذا ما وقف عنده حنفي.

فعلى الصعيد الواقعي نجد أن مشروع الإنسان العالمي الذي تنصهر فيه كل الاختلافات قد تحول إلى مشروع غير قابل للاكتمال وإذا بنا نتحول من النزعة الإنسانية في مفهومها العام إلى المفهوم الخاص التي تعني الدفاع عن الإنسان الأوروبي (فكرة الرجل الأبيض)، واعتباره أعلى مرتبة من غيره على مستوى الفكر والقيم.

فهنا يصبح المشروع الغربي عنصري وليس انساني لأنه تحلى عن قيمه الإنسانية التي دعا إليها وخاصة النزعة الإنسانية التي كانت هي الفكرة الجوهرية والقاعدة الأساسية التي يقوم عليها فقد بقيت حبيسة فلسفة التنوير التي نادت بالإنسان وأهميته.

وقد ازدادت شدة هذه الفكرة في ظهور العدمية التي مهدت لتفسخ المشروع الإنساني وخاصة قلب القيم "فالإنسان كقيمة والحرية والمساواة والعدالة والتقدم والعقل والطبيعة انقلبت إلى أضدادها وأعمل الغربي على تدميرها فقد ظهر الانسان النسبي "(عبد الله، 2011، ص 336) والآن يمكن أن نطرح السؤال الآتي ماذا بعد تفسخ المشروع الإنساني ؟الإجابة بكل تأكيد هي الوقوع في فخ الفلسفة المادية التي فيها يتحول الانسان إلى مجرد آلة فيفقد بذلك قيمة وأبعاده الإنسانية وهذا ما هو حاصل اليوم في الخطاب الأوروبي الما بعد حداثي ،وقد عبر عن هذه الفكرة ميشال فوكو بشكل واضح حين ذكر أن المشروع الإنساني الغربي المعاصر قد فقد قيمه التي كان يقدسها في وجوده الإنساني وخاصة أن ميشال فوكو وجد أن هناك اقصاء لبعض الشرائح من دائرة الإنسانية وخاصة المجانين فالمشروع الغربي كان مبني على تهميش الإنسان وافقاده ابعاده القيمية فحسب ميشال فوكو من هو الإنسان الذي يدعو إليه التنوير الغربي .

وهو نفس الموقف الذي يؤكد عليه عبد الوهاب المسيري فيما يخص وقوع الحداثة في فخ الفلسفة المادية التي جعلت الحياة الانسانية مادة بعيدة عن كل القيم الروحية التي تسمو بالإنسان, فقد أفرغت الإنسان من كل المعاني الروحية وجعلته كالآلة ومن هنا أصبح يعاني قلقا وجوديا واغترابا في عالمه الذي هيمنت عليه المادة.

ج) الموت في الروح: لما كان الفن في أصله تجربة جماعية يهدف إلى تحقيق الوحدة والتفاعل الاجتماعي وما آل إليه الوضع في الوعي الأوروبي نجد أن الفن ضمن إطار فلسفة ما بعد الحداثة ينزع إلى الفردانية متجاوزا بذلك الوعي الجماعي. فالعمل الفني أصبح لا يخضع لتقييم الجماعة فلم يعد المجتمع هو الذي يحكم على الفن بل الفرد هو الذي له سلطة والضوابط الاجتماعية لم يعد لها أثر في التقييم.

فلقد شهد الفن تحولا كبيرا بين ان يكون رسالة خالدة هدفها الإصلاح والتوجيه وثمة كان يرتقي بالذوق العام على اساس أنه يخضع للضوابط الاجتماعية والدينية أي انه مأخوذ من المجتمع وبين أن يكون اليوم معبرا عن الواقع ، إلا أن التحول الذي شهده خطاب ما بعد الحداثة هو فقدانه عما كان عليه أي أن العمل الفني أضحى اليوم تجربة واقعية بامتياز ، هذه التحولات وأخرى دفعت أن يعطي جانبا من الاهتمام واصفا إياه بأنه أخذ دليل نموذج يحاكي الموت في الروح إذ أن "ظهور الفن التجريدي او الموسيقى الإلكترونية أو البحث عن الإيقاعات كل ذلك ليس فنا بقدر ما هو تعبير عن روح الحضارة الأوروبية المعاصرة "(حنفي، ص 15) إن الفن في أصله تجربة إنسانية لأنها تحقق لنا غاية الاهتمام بالنوع الإنساني لكن الفن بمفهومه المعاصر ضمن إطار الوعي الاوربي فقد أصبح الإنسان مصدرا للمتعة الفنية عوض أن يهتم الفن بالإنسان أصبح العكس فالمصمم يحاول أن يضفي فردانيته على الأعمال الفنية خاصة كاريزما الفنان والموسيقى المعاصرة فهي كلها

مظاهر تدل على غياب القيم الروحية التي تهتم بالجوانب الإنسانية وكذلك هي تعبير عن مرحلة الانحطاط في الوعي الأوروبي.

ويجد حنفي هذه النزعة الروحية المفقودة في الوعي الأوروبي في نهايته موجودة بقوة في التصوف إذ يرى بأن فيه صورة جمالية بحيث انها "امتزجت التجربة الصوفية بالتجربة الأدبية الإبداعية لفنون القول خاصة الشعر ثم النثر ثم القصة وقد يكون عالم الخيال أكثر واقعية من عالم الواقع "(حنفي، 2009، ص 28)

هنا يرى حنفي بأن التصوف الإسلامي أقوى صورة جمالية تعبر بفنونها الشعرية والنثرية عن تجربتها الصوفية الروحية ، إذ نجد التعبير قويا وله روح في وصف الأحوال التي يعيشها المتصوف وخاصة تللك الحالات الروحانية الداخلية التي يمر بها المتصوف فنجد لغته تحمل معاني روحانية تسعى لخدمته .

وهنا يرجع الفن إلى غايته الأولى وهي الإصلاح والتوجيه والتعبير عن روح الفنان إذ نجد في أشعار رابعة العدوية فنا شعريا روحيا يحمل في ذاته كل معاني الروح فلقد لجأت إلى الفنون الشعرية والقصة والنثر لتصوير تلك الخلجات الداخلية التي تسكن روحه .

فمن خلال هذا يكون التصوف هو التجربة الإنسانية التي تسعى لتحقيق كل الجوانب الروحية للإنسان وبالتالي يستعيد الفن بعده القيمي والروحي من خلال ما نلمسه في أشعار المتصوفة المسلمين والذي يراه حنفي غائب في الوعي الأوروبي وبالتالي يكون عالم الخيال أي التجربة الروحية الصوفية أكثر واقعية من العالم الحقيقي الذي يعيشه الإنسان فالفن في فترة ما بعد الحداثة عرف تراجعا من الناحية الروحية لأنه اهتم بعالم الواقع وابتعد عن القيم الروحية ولكن التصوف حافظ على الروح الفنية كوسيلة للتعبير عن كل ما هو موجود داخل الإنسان هذا حسب حنفي .

خاتمة: نستنتج من خلال ما سبق أن :

_حسن حنفي يعتبر من المفكرين العرب المعاصرين الذين حاولوا صياغة مشروع نهضوي غايته هي ايقاظ الوعي العربي وتحريك عجلة التنمية وإنشاء حضارة لها مقوماتها انطلاقا من تراثها بالإضافة إلى استفادتها من حضارة الآخر الاوروبي .

_لقد وضع حسن حنفي مشروع عنوانه الاستغراب والذي يهدف من خلاله إلى التعرف على الآخر ورسم حدوده والتعرف على أسباب تقدمه.

_ توصل حنفي من خلال تتبع دراسته للوعي الأوروبي إلا أن هذا الوعي له مصادر معلنة وخفية والغاية من هذه الدراسة التي قام بها هو القضاء على المركزية الغربية التي طغت على الفكر الغربي وتخليص الحضارات الشرقية من الاقصاء الذي يمارس عليها.

_يرى حنفي أن الوعي الأوروبي مر بالعديد من المراحل وأنه ليس طفرة وليس وليد اللحظة وإنما يمثل مرحلة من مراحل الفكر الإنساني فهو ليس الوعي الاخير للإنسانية بل له بداية ونهاية .

_من خلال الدراسة المفصلة التي قام بها حسن حنفي للوعي الاوروبي ومصادره ومراحله وصل إلا ان هناك بوادر تدل على نهاية هذا الوعي وهي ما آل إليه والمتمثلة في العدمية التي عملت على قلب القيم وثانيا الازمة التي شهدها المشروع الإنساني العالمي الذي توقف عند فلسفة التنوير وأصبح الإنسان النسبي بعدما كان هو المطلق وثالثا الأزمة التي شهدها الفن في الفترة المعاصرة بعدما كان الفن هدفه تحقيق السعادة للإنسان أصبح الإنسان هو الذي يسعى وراء الفن ليصبح تجربة واقعية خالي من كل القيود الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية التي كان وراء الأعمال الفنية فقد أصبح العمل الفني فردي بعدما كان جماعي فقد انسلخ عن هدفه الروحي الذي وجد من أجله.

_لقد حاول حسن حنفي دراسة الحضارة الغربية برؤية نقدية غايتها وضع مشروع نهضوي هدفه تأسيس حضارة عربية تقوم على تراثها مع إعادة النظر فيه وكذلك تأخذ من الآخر واحتوائه بكل مافيه من جوانب ايجابية ونقده من أجل تأسيس حضارة انسانية وليست مركزية كتلك عند الغرب وهذا حسب حسن حنفي.

_لقد كانت الغاية من المشاريع العربية المعاصرة إعادة النظر الوضع الذي يتخبط فيه العالم العربي وتجاوز الازمات التي يعانيها من خلال ايجاد مناهج تتلاءم مع التراث بالإضافة إلى نقد الوعي الغربي المركزي الذي كان هو جوهر مشروع حسن حنفي .

قائمة المصادرو المراجع:

أ) قائمة المصادر :

1)حسن حنفي، (1990)، في الفكر الغربي المعاصر ، مصر: المؤسسة الجامعية للدراسات، ط4.

2) حسن حنفي، (1991)، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة: الدار الفنية، دط.

3) حسن حنفي، (2006)، ليسينج تربية الجنس البشري، لبنان: دار التنوير ، ط2.

4) حسن حنفي، (2009)، من الفناء الى البقاء ، لبنان: ج1 ،دار المدار الإسلامي ، دط ، 2009.

5) حسن حنفي، (2017)، موقفنا من التراث القديم، المملكة المتحدة، دار هنداوي، د ط.

6) حسن حنفي، (2017)، دراسات فلسفية، ج1، المملكة المتحدة: دار هنداوي، د ط.

ب) قائمة المراجع:

1)خالد حسين عبد الله،(2011)، النهضة في الفكر العربي المعاصر، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1.

2)السيد ولد اباه، (2010)، اعلام الفكر العربي، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ط1.

3)عادل بن بوزيد عيساوي، (2016)، سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الاسلامي، سوريا: مؤسسة وعي للابحاث،ط1.

4)فتحي المسكيني، (2013)، الكوجيتو المجروح، بيروت: منشورات ضفاف، ط1.

5)كمال عبد اللطيف، (1992)، في الفلسفة العربية المعاصرة ، الكويت: دار سعاد الصباح، ط1.

6)ماسيمو كامبانيني، (2022)، الفكر الإسلامي المعاصر،القاهرة: مصر العربية للنشر، ط1.

7)مجموعة مؤلفين ، (2013)، الفلسفة الأخلاقية ، بيروت: منشورات ضفاف، ط1.

8)ممدوح بريك الجازي، (2019)، الصيغة النظرية لعلم الاستغراب، لبنان: دار الأكاديميون، ط1.

ج) قائمة المعاجم :

1) مصطفى حسيبة، (2009)، المعجم الفلسفي ، عمان: دار أسامة ، عمان ، ط1.